الفصل الثاني

فاتحة الكتاب وعلاقتها بمقاصد الذكر الحكيم

كلام علمائنا في هذا الموضع من أدق الكلام وأحكمه ، ولئن جاء كلام الباحثين في تبيان العلاقة بين مطالع الشعر ومقاصده ضربا من التَّظَنُّن ، وقائله لا يكاد يبين ، فقد جاء في الدرس القرآني على أتم وجه وأبينه ، لأنه جاء استنباطا لكلام من لا ينطق عن الهوى ﷺ مفسر القرآن الأول ، وجاء مصطلح «براعة الاستهلال» ـ معنى لا اسما ـ في كلام رسول الله ﷺ على أوسع نطاق وأحكمه بما يعد به هذا الفن في القرآن ضربا من ضروب الإعجاز ، وبما تعد به السنة الشريفة المحضن الأول لفن البلاغة عند التأريخ لفنونها .

وقد جاء مصطلح «براعة الاستهلال» في درس البلاغيين ذيلا لمؤلفاتهم وجاء في الدرس القرآني في أول صفحات التراث القرآني ، روى محمد ابن جرير الطبري بسنده عن رسول ﷺ أنه قال في فاتحة الكتاب : «هي أم القرآن ، وهي فاتحة الكتاب ، وهي السبع المثاني»[1].

---

(١) جامع البيان للطبرى ٣٦/١ ، فتح الباري بشرح صحيح البخارى كتاب التفسير ٢٣٢/٨ .

وقد علل علماؤنا لتسميتها بأم القرآن ، وأنتجت تأويلاتهم تراثا هائلا في موضوع دراستنا ، وقد علل لهذه التسمية محمد بن جرير (ت : ٣١٠هـ) متخذا المعنى اللغوي للأم أصلا في فهم هذه التسمية قال ابن جرير :

« وسميت أم القرآن ، لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها ، وتأخر ما سواها خلفها في القرآن والكتابة ، وذلك أن معناها شبيه بمعنى فاتحة الكتاب وإنما قيل لها : ـ لكونها كذلك ـ أم القرآن ، لتسمية العرب كل جامع أمرا ، أو مقدما لأمر ، إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع : أما ، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ : أم الرأس ، وتسمي لواء الجيش ، ورايتهم التي يجتمعون تحتها للجيش : أما ... »[1].

ويروي البيهقي (ت : ٤٥٨هـ) أثرا في فضل فاتحة الكتاب يقوي تأويل ابن جرير ويفتح بابا آخرللعلماء في التأويل من بعده ـ روى البيهقي في شعب الإيمان بسنده عن الحسن قال :

« أنزل الله ـ عز وجل ـ مائة وأربعة كتب من السماء ، أودع علومها أربعة منها ـ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ـ ثم أودع علوم التوراة والإنجيل والزبور الفرقان ، ثم أودع علوم القرآن المفصل ، ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب ، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة »[2] .

---

(١) جامع البيان ٣٦/١ .

(٢) شعب الإيمان للبيهقي كتاب فضائل القرآن ٤٥١/٢ تحقيق : محمد السعيد ابن بسيوني ، دار الكتب العلمية ١٤١٠هـ .

ولعله خص المفصل بالذكر ، لأن النبي ﷺ قد فُضّل بالمفصل ، فقد روى ابن جرير بأسانيد متعددة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أعطيت السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطيت المثاني مكان الزبور ، وأعطيت المئين مكان الإنجيل ، وفضلت بالمفصل »[1] .

وقد تتابعت استنباطات العلماء من الحديثين السابقين في التعليل لتسميتها بأم القرآن ، ذكر البغوي (ت:٥١٦هـ) أنها « سميت فاتحة الكتاب ، لأنه تعالى بها افتتح القرآن ، وأم الكتاب ، لأنها أصل القرآن »[2] .

وكان فهم جار الله الزمخشري أصرح من غيره فقد قال في هذا الموضع : « وتسمى أم القرآن لاشتمالها على المعاني التي في القرآن من الثناء على الله تعالى بما هو أهله ، ومن التعبير بالأمر والنهي ، ومن الوعد والوعيد »[3] .

ولما كان هذا الفهم ـ الذي يعني أن علاقة فاتحة الكتاب بمقاصده هي علاقة الإجمال ثم التفصيل ـ يمكن أن يعترض عليه باشتمال بعض سور القرآن الكريم على ما اشتملت عليه الفاتحة ، ولم تسم بهذا الاسم حرر السيد الشريف هذا الاستنباط فقال :

« ولا يقال : كثير من السور تشتمل على هذه المعاني ، ولم تسم أم القرآن ، لأنا نقول : لما كانت هذه السورة متقدمة على سائر السور موضعا ـ بل نزولا على قول الأكثر ، وكانت مشتملة على تلك المعاني ، مجملة على أحسن ترتيب ، ثم صارت مفصلة في السور الباقية ، فنزلت منها

---

(١) جامع البيان ٣٤/١ ، والبرهان للزركشي ٢٥٨/١ .
(٢) معالم التنزيل للبغوي ٣٧/١ تحقيق : خالد عبد الرحمن ، بيروت ١٤٠٦هـ .
(٣) الكشاف ٢٣/١ .

منزلة مكة من سائر القرى ، حيث مهدت أرضها أولا ، ثم دحيت الأرض من تحتها ، فكما أن مكة أم القرى ، كذلك الفاتحة أم القرآن»[1].

وقد ذكر الطبرسي (وهو من علماء الإمامية في القرن السادس الهجري) تأويلا يلتقي مع التأويلات السابقة قال : «وسُميت بذلك ، لأنها متقدمة على سائر سور القرآن . . . وقيل : سميت بذلك ، لأنها أصل القرآن ، والأم هي الأصل ، وإنما صارت أصل القرآن لأن الله تعالى أودعها مجموع ما في السور ، لأن فيها إثبات الربوبية والعبودية وهذا هو المقصود بالقرآن»[2] .

وهو ما ذكره القرطبي (ت : ٦٧١هـ) بعد ذلك في قوله :

«وفي الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها حتى قيل : إن جميع القرآن فيها ، وهي خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن»[3] .

ثم تخطو الفكرة خطوة أخرى على يد الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ (ت : ٦٠٤هـ) فيشرح معنى قول الزمخشري في اشتمال الفاتحة على معاني القرآن ويجمل مقاصد القرآن الكريم يقول ـ رحمه الله ـ في تعليل تسميتها بأم القرآن : ...

والثالث : أم القرآن والسبب فيه وجوه :

الأول : أن أم الشيء أصله ، والمقصود من كل القرآن تقرير أمور أربعة ـ الإلهيات والمعاد والنبوات وإثبات القضاء والقدر لله تعالى : فقوله ﴿ **ٱلْحَمْدُ**

---

(١) حاشية السيد الشريف على الكشاف ٢٣/١، ٢٤ .

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسى ٣٥/١ ، بيروت ١٣٧٧هـ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥٧/١ ، دار الغد العربي .

﴿ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يدل على الإلهيات ، وقوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ يدل على المعاد ، وقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يدل على نفي الجبر والقدر وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره ، وقوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ يدل أيضا على إثبات قضاء الله وقدره وعلى النبوات . . . فلما كان المقصد الأعظم من القرآن هذه المطالب الأربعة وكانت هذه السورة مشتملة عليها لقبت بأم القرآن» .

السبب الثاني : أن حاصل جميع الكتب الإلهية يرجع إلى أمور ثلاثة :

إما الثناء على الله باللسان ، وإما الاشتغال بالخدمة والطاعة ، وإما طلب المكاشفات والمشاهدات فقوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . . . ﴾ كله ثناء على الله ، وقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ اشتغال بالخدمة والعبودية وأما قوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ۝٦ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فهو طلب للمكاشفات والمشاهدات وأنواع الهدايات .

السبب الثالث : أن المقصود من جميع العلوم : إما معرفة عزة الربوبية أو معرفة ذلة العبودية ، فقوله ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ . . . يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ يدل على أنه هو الإله المستولي ثم من قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ . . .﴾ إلى آخر السورة يدل على ذل العبودية .

السبب الرابع : أن العلوم البشرية إما علم ذات الله وصفاته وأفعاله ، وهو علم الأصول ، وإما علم أحكام الله تعالى وتكاليفه ، وهو علم الفروع ، وإما علم تصفية الباطن والمقصود من القرآن بيان هذه الأنواع الثلاثة ، وهذه السورة مشتملة على تقرير هذه المطالب الثلاثة»[1].

---

(١) مفاتيح الغيب ٢١٩/١، ٢٢٠ .

وقال الطيبي في الفاتحة : «وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلا ، فإنها واقعة في مطلع التنزيل والبلاغة فيه : أن تتضمن ما سيق الكلام لأجله ، ولهذا لا ينبغي أن يقيد شيء من كلماتها ما أمكن الحمل على الإطلاق»[1] .

وذكر الغزالي (ت : ٨٠٦هـ) (في خواص القرآن) أن «مقاصد القرآن ستة ، ثلاثة مهمة ، وثلاثة تتمة .

الأولى : تعريف المدعو إليه ، كما أشير إليه بصدرها ، وتعريف الصراط المستقيم ، وقد صرح به فيها ، وتعريف الحال عند الرجوع إليه تعالى ، وهو الآخرة كما أشير إليه بقوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ الأخرى : تعريف أحوال المطيعين ، كما أشار إليه بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ، وتعريف منازل الطريق ، كما أشير إليه بقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾[2] .

وقد نبه جلال الدين السيوطي (ت : ٩١١هـ) في «تناسق الدرر في تناسب السور» إلى أنه أَلَّف كتابا في تعلقات القرآن سماه «أسرار التنزيل» جعله مشتملا على بضعة عشرة نوعا .

الأول : في بيان مناسبات ترتيب سوره .

والثانى : بيان أن كل سورة شارحة لما أجمل في السورة التي قبلها .

والثالث : وجه اعتلاق فاتحة الكتاب بخاتمة التي قبلها .

والرابع : مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقت له ، وذلك براعة الاستهلال[3] .

(١-٣) تناسق الدرر في تناسب السور ، ص٧٥ .

والنوع الرابع : هو موضوع دراستنا ، ولـم أعـثر على هـذا الكتاب ، لا مخطوطا ولا مطبوعا ، ويبدو أنه يحوي خيرا كثيرا بشأن موضوعنا ، والسيوطى ـ رحمه الله عندما تكلم في سورة الفاتحة جمع كلام العلماء واستهله بقوله : « افتتح ـ سبحانه ـ كتابه بهذه السورة ، لأنها جمعت مقاصد القرآن ، ولذلك كان من أسمائها : أم القرآن ، وأم الكتاب ، والأساس فصارت كالعنوان وبراعة الاستهلال »[1] وقد كرر الكلام على فاتحة الكتاب في كثير من مؤلفاته ، بما لا يخرج عما ذكرته[2] .

وهذا الاسم لفاتحة الكتاب الذي انبنت عليه كل أقوال العلماء السابقين دفـعـه بعض العلماء ، محتجا بضعف الحديث ، ومستندا إلى قوله ﷺ : « لا يقولن أحدكم أم الكتاب ، وليقل فاتحة الكتاب » وقد دفع السيد محمود شكري الألوسي (ت : ١١٢٧ هـ) هذا الاحتجاج ، فقال « لا أصل له بل قد ثبت في الصحاح تسميتها به »[3] ، وقد علل ـ رحمه الله ـ لهذه التسمية ، ثم شرح مقالة جار الله العلامة ـ الزمخشري ـ في اشتمالها على مقاصد المعاني التي في القرآن فشرح اشتمالها على التعبد ، والأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، بما لا يخرج عن كلام الفخر الرازي ، والقاضي البيضاوي ، والسابقين من العلماء وقد استخرج الشيخ محمد صديق خان (ت : ١٣٠٧ هـ) من فاتحة الكتاب ما يدعو للعجب حيث قال :

« إن فيها الإرشاد إلى إخلاص التوحيد في ثلاثين موضعًا »[4].

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور ، ص ٧٥ .

(٢) ينظر : معترك الأقران ٥٣/١، وشرح عقود الجمان ص١٧٥، والإتقان ١٣٦/٢.

(٣) روح المعانى للألوسى ٣٤/١ .

(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن ٤٧/١ لمحمد صديق خان .

وقد استخرج ذلك من مواضع التقديم والتأخير في السورة الكريمة .

وقد وصل ظهور العلاقة (الإجمال والتفصيل) التي بين فاتحة الكتاب ومقاصد الذكر الحكيم ، إلى أن تكون مرجحا لنزول الفاتحة أول القرآن ، عند ضعف الاستناد إلى ما أخرجه البيهقي في الدلائل عن أبي ميسرة « أن رسول الله ﷺ قال لخديجة : إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء ، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا ، فقالت : معاذ الله ، ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدي الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصدق ، ثم إنه ﷺ أخبر ورقة بذلك ، وإن ورقة أشار عليه بأن يثبت ويسمع النداء ، وإنه ﷺ لما خلا ناداه الملك : يا محمد قل : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ حتى بلغ : ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ »[1] .

قال الأستاذ المراغي : « وقد رجح هذا بأنها مشتملة على مقاصد القرآن على سبيل الإجمال ، ثم فصل ما أجملته بعد . . . »[2].

وقد استبعدوا نزولها بالمدينة لعلتين أولاهما : أن سورة الحجر مكية بالاتفاق ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي ﴾ وهي فاتحة الكتاب . . . والثاني : أنه يبعد أن يقال : إنه أقام بمكة بضع عشرة سنة بلا فاتحة الكتاب »[3].

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٢٤/١ عن عمرو بن شرحبيل أنه قال : أول ما نزل من القرآن : الحمد لله رب العالمين ، ثم ساق الحديث ببعض الاختلاف وينظر أيضا تفسير المراغي ٢٣/١، ٢٤ ، الحلبي ثالثة ١٣٨٢هـ .

(٢) تفسير المراغي ٢٤/١ .

(٣) مفاتيح الغيب ٢٢٤/١ .

ووجود هذه العلاقة أيضا يرجح أن يكون ترتيب سور القرآن بتوقيف من النبي ﷺ على أرجح الآراء[1] كما قرر العلماء واحتجوا لذلك بعدة حجج .

---

(١) وللعلماء ـ رحمهم الله ـ مذاهب في ترتيب سور القرآن الكريم ، وممن ذهب إلى القول بأنه توقيفي ـ أبو جعفر النحاس محتجا بحديث النبي ﷺ (أعطيت مكان التوراة ...) والكرماني في البرهان يرجح ذلك الرأي أيضا فيقول : ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ ، وهو على هذا الترتيب كان يعرض ـ عليه السلام ـ على جبريل كل سنة ، ما كان يجتمع عنده منه ، وعرض عليه في السنة التي توفي فيها مرتين ، واحتج أيضا بقول جماعة من المفسرين في بيان الوجه في تعدد آيات التحدي بما ذكرته في موضعه من البحث .
وممن ذهب إلى ذلك أيضا أبو بكر الأنباري وعنده أن القرآن كله أنزل إلى سماء الدنيا ، ثم فرق في بضع وعشرين سنة ، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث ، والآية جوابا لمستخبر ، ويقف جبريل النبي ﷺ على موضع السورة والآية ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي ﷺ فمن قدم سورة أو أخرها ، فقد أفسد نظم الآيات .
وهو رأي كثير من العلماء أيضا ، وقد رجحه الفخر الرازي ، والطاهر ابن عاشور ، وكثير من العلماء . (يراجع في هذا الموضوع البرهان للزركشي ٣٤/١ وما بعدها ، ومفاتيح الغيب ٣٤/٤، والتحرير والتنوير ٧٩/١ والإتقان للسيوطي) .
وكما قال العلامة محمد فاضل بن عاشور بأن ترتيب النزول ترتيب عارض « أما الترتيب فقد كان منظورا فيه إلى تسلسل المعاني ، وتناسب أجزاء الكلام ، وكلا الترتيبين راجع إلى الوحي ، وكلاهما وقع به التحدي الإعجازي إلا أن أولهما مؤقت زائل بزوال ملابساته من الوقائع والأزمنة والأمكنة ، والترتيب الآخر ، وهو ترتيب التلاوة التعبدي باق في ذات الكلام ، يدركه كل واقف عليه وتال له من الأجيال المتعاقبة (ينظر : التفسير ورجاله ص١٠ وما بعدها) وهو كلام جيد بالغ .

بل كان وجود هذه العلاقة أساسا لدى الشيخ الإمام محمد عبده في ترجيح نزول الفاتحة أولا فقد قال الشيخ رشيد رضا :

« وأما الأستاذ الإمام ، فقد رجح أنها أول ما نزل على الإطلاق ، ولم يستثن قوله تعالى : ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ ونزع في الاستدلال على ذلك منزعا غريبا في حكمة القرآن وفقه الدين ، فقال ما مثاله : ومن آية ذلك أن السنة الإلهية في هذا الكون ـ سواء كان كون إيجاد أو كون عدم تشريع ـ أن يظهر سبحانه ـ الشيء مجملا ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجا . . . والفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن ، كل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت فيها » .

ثم نزع منزعا آخر في بيان مقاصد القرآن الكريم ، يوسع دائرة توضيح هذه العلاقة فقال رحمه الله :

« وبيان ما أريد هو أن ما نزل القرآن لأجله أمور ـ **أحدها** : التوحيد ... **ثانيها** : وعد من أخذ به ، وتبشيره بحسن المثوبة ، ووعيد من لم يأخذ به وإنذاره بسوء العقوبة ، **ثالثها** : العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب وتثبته في النفوس ، **رابعها** : بيان سبيل السعادة ، وكيفية السير فيه الموصل إلى نعيم الدنيا والآخرة ، **خامسها** : قصص من وقف عند حدود الله تعالى ، وأخذ بأحكام دينه ، وأخبار من تعدوا حدوده ، ونبذوا أحكام دينه » .

ثم بين اشتمال الفاتحة على هذه الأمور فالتوحيد في ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ، والوعد والوعيد الأول منهما مطوي في ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ، و ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ يتضمن الوعيد والعبادة : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ . . . ﴾ ويشمل العبادة وأحكام المعاملات

وسياسة الأمة قوله : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ ، وأما الأخبار والقصص ففي قوله تعالى : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ .

فتبين من مجموع ما تقدم : أن الفاتحة قد اشتملت إجمالا على الأصول التي يفصلها القرآن تفصيلا ، فكان إنزالها أولا موافقا لسنة الله تعالى في الإبداع وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى أم الكتاب .

وقد وفق الأستاذ محمد رشيد رضا بين القول بنزولها أولا ، والقول بنزول سورة العلق ثانيا حيث قال :

« ويمكن أن يقال : إن نزول أول سورة العلق قبل الفاتحة لا ينافي هذه الحكم التي بينها ، لأنه تمهيد للوحي المجمل ، والمفصل خاص بحال النبي ﷺ وإعلام له بأنه يكون ـ وهو أمي ـ قارئا بعناية الله تعالى »[1] .

ويأتي كلام العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز في فاتحة الكتاب عصارة لمقالات السابقين ، وإفرازا بديعا لمقالاتهم ، وتوليدا لأفكارهم ، يقول : رحمه الله ـ تعالى ـ في مقال نشر بمجلة « المجلة » بعنوان « نظرات في فاتحة الكتاب » .

« ولكن هلم بنا نلق على هذه السورة الكريمة نظرتين أخريين : نظرة في موادها ومقاصدها ، مقارنة بمواد القرآن ومقاصده .

ونظرة في وجهة خطابها مقارنة بوجهة الخطاب القرآني . . .

فالشئون التي تناولها القرآن ـ على تنوعها وكثرتها ـ نستطيع أن نجملها في أربعة مقاصد هي فىالحقيقة كل مطالب الدين والفلسفة والأخلاق .

---

(١) تفسير المنار المسمى بتفسير القرآن الحكيم ٢٩/١ وما بعدها .

مقصدان نظريان هما : معرفة الحق ، ومعرفة الخير ، ومقصدان عمليان تثمرهما هاتان المعرفتان .

فثمرة الحق : هي تقديس الحق واعتناقه ، وثمرة معرفة الخير : هي فعل الخير والتزامه . . . فإن كان هذا الأصل النظري الأول هو معرفة الله ، فالأصل العملي الأول الذي يثمره هذا الأصل هو توقير الله .

ومن جملة هذين الأصلين يتألف الجانب الإلهي بعنصريه (النظري والعملي) والقرآن يفصله تفصيلا ، وسورة الفاتحة تجمله إجمالا في شطرها الأول : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . . . يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، وهذه هي المعرفة الأساسية .

الشطر الثاني : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وهذا هو الموقف العملي الذي تثمره تلك المعرفة .

﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . . ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . . مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ شذرات ثلاث انتظمت أركان العقيدة القرآنية الثلاثة في ترتيب بالغ الغاية في الإبداع والإحكام (المبدأ فالواسطة فالمعاد).. (التوحيد فالنبوة فالجزاء).. ثم هو ليس ذا رحمة واحدة ، ولكنهما رحمتان مفسرتان في القرآن : رحمة وسعت كل شيء ... ورحمة أخرى خصوصية إضافية علاوة يمنحها لمن يستحقها ، تلك هي رحمة الاصطفاء والاجتباء والقيادة والإمامة على هاتين الرحمتين يقوم ركن النبوات . .

عرفنا الآن مغزى هذه الصفات الثلاث ، ومواقعها فيما بينها ، فلننظر إلى مواقعها مما حولها ، لنرى كيف وقعت بين قضيتين ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ . . إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾؟ فكانت تأييدا لما قبلها ، وتمهيدا لما بعدها فمنزلتها من قضية ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ . . ﴾ منزلة البرهان من الدعوى ، ومنزلتها من

قضية العبادة ، منزلة القوة المحركة من الحركة المطلوبة . . ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ باجتماع هاتين الكلمتين بطل الشرك كله (شرك العبادة لغير الله ، وشرك الاستعانة والاستشفاع بما لم يأذن به الله) .

وهكذا الجانب الإلهي ـ نظريه وعمليه ـ يمثل نصف المهمة القرآنية وقد رأينا كيف جمعته سورة الفاتحة في شطرها الأول .

والعجيب من شأن سورة الفاتحة ، أنها ـ على فرط إيجازها ـ قد انتظمت المنهجين جميعا في كلمتين ، وذلك أنها حين حببت إلينا طريق الفضيلة ، بينت لنا أولا قيمته الذاتية ، فوصفته بالاعتدال والاستقامة ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

ثم بينت ما في عاقبته من نفع وجدوى ، فوصفته بأنه الطريق الموصل إلى رضوان الله ونعمته ، وأشارت في الوقت نفسه إلى مثله التاريخية في سيرة أهله الذين نصبوا أنفسهم للقدوة الحسنة .

وهكذا نرى السورة الكريمة قد انتظمت المقاصد القرآنية الأربعة الجانب الإلهي (نظريه وعمليه) ، والجانب الإنساني (نظريه وعمليه) .

كل ذلك في أوجز عبارة ، وأحكم نسق . . .

سورة الفاتحة إذن : هي خريطة القرآن ، وفهرست مواده إنها جوهرة القرآن ونواته ، ولب لبابه ، فهي بحق أم القرآن . . .

وبقيت نظرة ثانية سريعة تقارن فيها بين أسلوب الخطاب في الفاتحة وأسلوب الخطاب في القرآن . . .

ماذا نرى في هذين الأسلوبين؟ نرى اتجاهين مختلفين تمام الاختلاف .

فسورة الفاتحة هي السورة الوحيدة التي وضعت أول الأمر لا على لسان الربوبية العليا ، ولكن على لسان البشرية المؤمنة تعبيرا عن حركة نفسية جماعية متطلعة إلى السماء ، بينما سائر السور تعبر عن الحركة المقابلة حركة الرحمة المرسلة من السماء إلى الأرض .

وهكذا حين ننظر إلى القرآن في جملته نراه يتمثل أمامنا في صورة مفاجأة ثنائية الفاتحة أحد طرفيها ، وسائر القرآن طرفها الآخر . . .

أول ما نلتقطه من هذه العبر ، أن القرآن وهو دستور الإسلام لوجاءنا بدون الفاتحة لكان دستورا وافدا على الأمة طارئا عليها . . .

إن موقع الفاتحة هنا موقع القرار الجماعي الذي تعلق به الأمة المؤمنة حاجتها إلى هذا الدستور ، وتؤكد مطالبتها به ، وإن موقع القرآن كله بعد الفاتحة هو موقع القبول والاستجابة لهذا المطلب»[1] ، انتهى كلامه رحمه الله .

والشيخ ـ كما ترى ـ يجمع الأغراض المتشاجرة في الذكر الحكيم التي يحسبها الناظر أغراضا شتى ـ إلى أغراض أربعة ، ثم يكشف عن العلاقة بين هذه الأغراض ، فالمقصدان العمليان هما ثمرتا المقصدين النظريين ، ثم يكشف عن مواقع هذه الأغراض في فاتحة الكتاب ، وذلك من أظهر البيان عن علاقة فاتحة الكتاب بمقاصد الذكر الحكيم ، ويقول الشيخ الصعيدى ـ « ويجب أن تشتمل مع هذا على ما يسمى براعة الاستهلال ، وهي أن يؤتى قبل الشروع في المقصود بما يشعر به ، ليعرف القارئ الغرض من وضع الكتاب ، ويكون على بصيرة به قبل الشروع فيه ، ثم

(١) نظرات في فاتحة الكتاب للعلامة محمد عبد الله دراز ، مقال نشر بمجلة المجلة العدد السابع ذو الحجة ١٣٧٦هـ يولية ١٩٥٧م .

جاء فيها بعد ذلك ركنها الثالث بقوله : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ ، وفي ذلك براعة الاستهلال المطلوبة ، لأنه يشير إلى أن المقصود بالقرآن وضع دين جديد للخلق يشتمل على أحكام لا عوج فيها ولا انحراف ، ويصلح ما أفسده الناس في شرائع من قبله »[1] .

كل هذا التراث الهائل ، كان استنباطا لكلام رسول الله ﷺ في تسمية الفاتحة بأم الكتاب ، وهكذا يأخذ فن براعة الاستهلال الذي هو في التراث القرآني فن علاقة مطالع الكلام بمقاصده ـ المكان الطبعي للنص في التناول له ـ وبيان خيوط النص ، وترابطه وتشابه أوله مع آخره لفظا ومعنى .

ولم يقف علماؤنا عند هذا الحد بل اعتبر أبو جعفر بن الزبير البقرة بيانا لقوله : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ قال رحمه الله : « لما قال العبد بتوفيق ربه : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ قيل له : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾ هو مطلوبك وفيه أربك وهو الصراط المستقيم، و ﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ القائلين ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ . . . ﴾[2] إلى آخر ما قال رحمه الله .

وقال بعض الأئمة : « تضمنت سورة الفاتحة الإقرار بالربوبية ، والالتجاء إليها في دين الإسلام ، والصيانة عن دين اليهود والنصارى ، وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين ، وآل عمران مكملة لمقصودها ، فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم »[3] .

---

(١) النظم الفني في القرآن ص٤٢،٤٣ للشيخ عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب .
(٢) البرهان في تناسب سور القرآن ص٧٨ .
(٣) تناسق الدرر في تناسب السور ص٧٦ .

حتى لكأننا نكاد أن نقول ـ رجما بالغيب ـ إن كل سورة من سور القرآن اختصت ببيان جزء من فاتحة الكتاب ، ولعل في أمر الشارع بوجوب تكرارها في كل ركعة من الفرائض تنبيها إلى عظمها ، وقد أحسن برهان الدين البقاعي عندما قرر أن مقصودها «مراقبة العباد لربهم ، فإن التزام اسمه تعالى ـ وحده كما دل عليه تقديم الجار ـ في كل حركة وسكون داع إلى ذلك : فلا سورة في القرآن أعظم من الفاتحة ، لأنه لا مقصود أعظم من مقصودها ، وهي جامعة لجميع معاني القرآن ، ولا يلزم من ذلك اتحاد مقصودها مع مقصوده بالذات ، وإن توافقا في المآل فإنه فرق بين الشيء ، وبين ما جمع ذلك الشيء فمقصود القرآن تعريف الخلق بالملك وبما يرضيه ، ومقصود الفاتحة غاية ذلك ، لكونها غاية له ، . . وعلى جلالة هذا المقصود جاءت فضائلها»[1] ، وكان تقريره هذا المقصود ملازما له في سور القرآن الكريم ، فقد ذكر أن خمسا من سورالذكر الحكيم افتتحت بالحمد لله (الفاتحة ـ الأنعام ـ الكهف ـ سبأ ـ فاطر) ولما كانت الفاتحة أم الكتاب كان حتما أن يكون الحمد فيها أصلا للحمد في بقية السور الأربع ، ولما كانت جميع النعم ترجع إلى إيجاد وإبقاء أولا ، وإيجاد وإبقاء ثانيا في دارى الفناء ، والبقاء ، فإنه قد جمعت سورة الفاتحة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ على الإيجادين والإبقاءين ... ثم جاء بالتعبد بالحمد بعد الفاتحة في أربع سور أشير في كل سورة منها إلى نعمة من هذه النعم على ترتيبها ، فالأنعام اختصت بالإيجاد الأول . . والكهف اختصت بالإبقاء الأول ... أما سبأ فإن الحمد فيها على نعمة

(١) مصاعد النظر ٢٠٩/١، ٢١٠ .

الإيجاد الثاني .. وأما سورة فاطر فهي سورة الإبقاء الثاني في دار الخلود[1]، وهذه دقيقة من دقائق البقاعي في لطائف المناسبات ، وبيان لعلاقة الإجمال والتفصيل .

وما أحسن قول بعض أهل العلم : «خذ فاتحة الكتاب ، وتأملها بعد أن تكون فرغت لتوك من قراءة القرآن كله لتجعل منه بأسره ، سياقا عاما لهذه السورة»[2] فالصراط المستقيم هو الإسلام ، والمغضوب عليهم هم اليهود ، و(الضالين) هم النصارى فوصفه بالاستقامة تعريض بهذه السبل ، فهي سورة الانتماء للإسلام والبراءة من كل ما عداه[3] .

فمقالات الأئمة شكلت إطارا عاما لموضوع براعة الاستهلال للكتاب كله بفاتحة الكتاب لم يحظ بها كتاب آخر ولا ديوان لشاعر .

* * *

(١) راجع نظم الدرر في فواتح هذه السور .
(٢) التعريض في القرآن الكريم ص١١٢ .
(٣) التعريض في القرآن الكريم ص١١٣ وما بعدها .